رسالة باريس

الأدب العربي في مناهج الاستشراق الفرنسي

علي الخير — عبدالرحمن أيوب

يقوم اندريه ميكيل المستشرق الفرنسي ، واستاذ الادب العربي في ((السوربون)) ، بزيارة سورية خلال شهر أيار المقبل . ويذكر أن ميكيل قد عين مؤخراً في ((الكوليج دو فرانس)) . وقد قام باجراء هذا الحوار معه بتكليف من ((المعرفة)) كل من علي الخير وعبد الرحمن أيوب اللذين يدرسان عليه في باريس .
((المعرفة))

يشغل رئاسة القسم العربي للدراسات في اللغات والحضارات الشرقية وشمال افريقيا في جامعة السوربون الجديدة .

له تسعة مؤلفات مطبوعة وثلاثة قيد الطبع منها : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ترجمة ومقدمة وتعليقات) ـ كليلة ودمنة (ترجمة وتعليقات) ـ الجغرافيا البشرية العالم الاسلامي حتى القرن الحادي عشر ميلادي ـ الاسلام وحضارته من القرن السابع وحتى القرن العشرين (نقل الى الالمانية والبرتغالية والايطالية) ـ الادب العربي في سلسلة (ماذا أعرف) ومما لديه قيد التحضير والطبع : كتاب تاريخ الادب العربي (صدر منه حتى الآن ثلاثة مجلدات.

من تاليف بلاشير ويقوم الاستاذ ميكيل على اكمال التاليف والنشر بعد وفاة الاستاذ بلاشير) ـ قصة الف ليلة وليلة بعنوان غريب وعجيب ـ وله من الروايات وجبة العشاء ـ لاقان ـ الابن المنقطع وهي من روائع الادب الانساني (ترجمت الى الايطالية والالمانية) اما مقالاته العلمية فتزيد على ثلاثين مقالا تنصب في غالبيتها حول اللغة والحضارة العربية ، تقاسمت نشرها المجلات العلمية المعنية بشؤون الاستشراق وحضارة الشرق . ومن أبرزها ـ القدس العربية ـ

ابواب حلب في كتاب المقدسي ـ تقنية الرواية لدى نجيب محفوظ ـ الرواية العربية المعاصرة ـ عندما عربي يحاكم لورنس ـ من لبنان ـ العالم العربي من خلال ذاته ـ تشكل وانماء الكوادر في المجتمعات النامية ـ المصطلح العربي للقرابة ـ الشعر العربي بين الامس واليوم ـ وصف المغرب في جغرافية الاصطخري ـ الصحراء في الشعر العربي الجاهلي(معلقة لبيد) ـ من أجل تجديد في دراسة العربية بفرنسا ـ الميراث والتركات في كتاب الافصاح لابن هبيرة ـ وغير ذلك الكثير مما نشر في الموسوعة الاسلامية ـ الموسوعة العالمية وموسوعة لاروس .

س : لقد عرفتم جيدا في الاوساط الجامعية بوطننا العربي ، من خلال مؤلفاتكم ومقالاتكم عن الحضارة والادب العربي ، الا أنكم خلاف الكثير من المستشرقين العاكفين هم أيضا على دراسة هذين الحقلين اخترتم منهجا في الدراسة لا يزال قليل الانتشار في بلادنا ، ألا وهو المذهب البنيوي . فلمَ هذا الاختيار ؟ وما هي حسب رأيكم درجة اسهامه في وعي الثقافة العربية والتعرف بها في مظاهرها المتعددة ؟

ج ـ في الحقيقة انني افضل ان اقول انني أنتمي « للمذهب الجامعي » وساوضح ذلك : ان الطريقة التقليدية للجامعة الفرنسية تبنى على النص ، وهي عمليا ترى أن الدراسة يجب أن تتناول النص والنص وحده كموضوع لها . ولا اعني من ذلك أن الدراسات المماثلة الاخرى ، مثلا ، تلك المتعلقة بحياة المؤلف ، بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لانتاج المؤلف ليست بذات اهمية ، بل هذه العناصر كلها من « سيرة وتاريخ وعلم اجتماع » يجب أن تكون محيطة بالنص ، وعلى هذا فابتداء من النص علينا ان نؤسس الطريقة .

ثم قلتم « بنيوية » سأبين أولا أنني بنيوي بحدود اقل من الآخرين ، ولا أظنني منتسبا الى المدرسة البنيوية كما تشتهر وتلتمع في أيامنا هذه من خلال الاسماء التي تعرفونها ، والتي هي من جهة أخرى تشمل سلسلة من التحليلات والطرائق غالبا ما هي شديدة الاختلاف الواحدة عن الاخرى ، لكن الذي يبدو لي أساسيا ، هو أن كل هذه المدرسة البنيوية بالمعنى العريض للتسمية ، انما تبنى في يومنا هذا على « النص » .. فما الذي أعنيه بكلمة نص ؟

أعني به المادة الخام التي استلمناها ، كما هي ، الخبر الذي أعطيناه ... ومن

الجلي انه بدءا من اللحظة التي يطبع فيها النص يفلت من كاتبه ويغدو ملكا جماعيا ، ونحن فيما نحن عليه ، لنا ملء الحق وعلينا كامل الواجب في أن نطبق عليه التحليلات التي نخال أنها الاكثر موضوعية وانسجاما . اذ النص ليس فقط ما أراد الكاتب أن يكتبه (أسود على أبيض) ، ما أراد أن يوصله لنا ، بل هو أيضا كل ما وصلنا رغما عنه ، وبعبارة أخرى ان النص هو أدب الوعي وأدب اللاوعي في الوقت ذاته ، وكي أتكلم عن البنيوية أقول : انني أخالها جديرة بان فرضت (كمسلمة) أن عملية الخلق الادبية لا واعية بمقدار ما هي واعية . يضاف الى ذلك انها من حيث المحصلة تحترم مفهوم (عبقرية) الابداع لدى المؤلف أكثر بكثير من عديد من المدارس التي سبقتها .

وعلى هذا ، فان من الواضح وجود محذور ، هذا المحذور يكمن في الانغلاق ضمن حدود الشكلية . بالتأكيد ، دراسة نص حسب المذهب البنيوي تؤسس قبل كل شيء على دراسة الشكل ، بمعنى أنها تنادي بعدم الفصل كيفيا بين الشكل والمضمون ، فليس في طرف ما قاله الكاتب وفي الطرف الآخر الشكل الذي صيغ فيه هذا القول .

إنه لمن الجلي أن الكاتب لا يمكنه ان يقول شيئا ما الا بصيغة معينة ، وعلى هذا فان دراسة النص يجب ان تقودنا الى فهم هذه « الصلة الحميمة » بين المضمون الذي قيل وبين الاسلوب الذي قيل فيه .

الآن ، وقد تكلمت عن المحذور ، فما الذي أريد قوله من وراء ذلك ؟ أريد أن أقول ان كل دراسة نص يجب ان تبدأ بتحليل الشكل الذي هو « الكلمات - وزن الشعر - اللفظ - الصرف - النحو (تركيب الجملة) وباختصار كل هذه المادة التي تؤلف اللغة » الا ان كل هذا « الشكل » ليس غاية في حد ذاته ، في الواقع ! ان غاية الشكل هي الايصال (الخبر) . انه وسيلة المؤلف ليوصل الينا ما لديه ليقوله ، مرة أخرى أؤكد أن ذلك (التوصيل) يكون في صيغة ما . والمحذور ، هو في الانغلاق مثلا ضمن احصائيات الضمائر الشخصية في نص ما ، وهذا واحد من الامثلة، من الطبيعي أن يوجد الكثير غيره .

واقع الحال ، ان على دراسة الشكل أن لا تنسى أبدا أنها تهدف في النهاية ان تظهر لنا ليس فقط كيف تم صنع النص ، بل أيضا لماذا صنع النص ، وفي اعتقادي ان الدراسة الشكلية في مفهومها الواسع ولنسمها هكذا بدلا من الدراسة البنيوية - تحمل للفكرة شرحها وترجمتها ، تحمل لها طريقتها التي قيلت فيها ، كيف تقولبت ، كيف تكونت لتصل ، ... انها تحمل اشياء كثيرة ربما ما كانت طرق التحليل السابقة لتحملها .

* * *

س : كنتم دائما في محاضراتكم بالسوربون وفي حلقات البحث العلمي تحبون أن ترددوا وصف تراث العرب الادبي بانه وافر وغني ، أتعتقدون ، أن هذه الطريقة تسمح بقراءة جديدة للثقافة العربية بدءا من هذا التراث ؟ .

ج ـ لنميز اذا شئتم بين الخاص والعام، انني اعتقد أن لدى كل نص قابلية لهذا النوع من التحليل ، وافضل برهان على ذلك ما لدينا في فرنسا في وقتنا الحاضر ، اذ أن سلسلة من الجامعيين تدرس ليس فقط النصوص التي نسميها كلاسيكية من نثر وشعر في الادب ، بل أيضا الرواية والخطاب السياسي ، والصور المتحركة ... الخ . باختصار كل ما يمكنكم تخيله في مقال شفهي أو مكتوب .

وعلى هذا فالذي قلته منذ هنيهةيستدعي بشكل طبيعي أن الادبالعربي بالمعنىالعريض للعبارة ، هو أيضا طوع هذه التحاليل ، ويبدو لي انه هو بشكل خاص اكثر طواعية لذلك ، فما الذي اعنيه من ذلك ؟ سأتناول مثالا خاصا ، ذلك الذي للشعراء العرب الكلاسيكيين في العصر العباسي ، وليكن اذا شئتم أبا تمام فهو رجل نعرف عنه ان البحث المعجمي ، البحث عن الالفاظ ، قد لعب دورا أساسيا لديه .

ونحن امام شعر من هذا النوع يمكننا تبني أحد موقفين : اما ان نصرح بان الشعر ليس البحث النحوي ، ليس البحث عن الالفاظ . أو أن نقول عكس ذلك ، وغني عن القول انني اتبنى هذا الموقف ، وان كل الشعر انما هو بحث عن الالفاظ ، فلا حدود بين اللغة والشعر لان الشعر هو اللغة .

وكيما أترك قليلا المجال العربي اقول لو اننا قرنا كيفيا أن الشعر ليس بحثا عن الالفاظ ، فاننا سنعزل عن الادب الفرنسي شخصا مثل مالارميه Mallarmé الذي كانت كل ابحاثه الشعرية قائمة على البحث عن الكلمات ، وعن الارتباطاتالخشنة بين الكلمات .

وعلى هذا النحو ، فانني أعتقد ان أبا تمام عندما يفتش في سياق شعري خاص جدا ، وليكن القصيدة التي هو في طريق كتابتها ، عن كلمة يعتقد انها اكثر ملاءمة له من غيرها ، فانني أرى انه في البحث الشعري له ملء الحق ان يقوم في الوقت نفسه بالبحث اللغوي .

ومن الطبيعي انني وانا اتكلم عن أبي تمام لا أعني به الا شاهدا بين العديد من الشواهد ، لانه كما قلت منذ لحظة يبدو لي ان الادب العربي بشكل خاص جدير بهذا النوع من التحليل ، ولاننا نعلم انه منذ الجاهلية ، والبحث في الشكل يؤلف أحد المكوناتالاساسية لهذا الشعر ولهذا الادب.

بعد كل ذلك ، لناخذ مثالا السجع ، وهذا أول مثال يلوح لي في الذاكرة .

في مقامات الهمذاني وفي مقامات الحريري اكثر ، يلعب السجع دورا اساسيا . هنا أيضا ، يمكن ان نبني موقفا تقليديا يتالف من القول : « ان البحث « المتكلف » واسمحوا لي بهذا التعبير ، لايفيد في شيء » كما أن بامكاننا طرح السؤال : لم قام الهمذاني او الحريري بهذا السعي وراء السجع ، وما هي الكلمات التي اختارها والتي عمل من خلالها هذا السجع ، وما هو دور هذه الكلمات في الداخل من نصه ؟

اذا ، لو شئتم ، فلكي ألخص ما قلته حول هذا السؤال . انني اعتقد ، بوجه عام ، ان هذا النوع من الدراسة مؤسس لكل نوع من الادب شفهي او مكتوب وانه بشكل خاص يلائم الادب العربي تبعا للاهمية التي أولاها فحول الكتاب العرب للبحث في الشكل .

: إن محاضراتكم تجمع غالبية عظمى من الطلبة العرب الذين يحضرون دكتوراه الحلقة الثالثة او دكتوراه الدولة ، فهل بسبب من هاجس منهجي أم لسبب آخر انكم تحاولون تنظيم هذه الحلقات حول دراسة عدد من مظاهر هذه الثقافة على ضوء الاتجاهات المختلفة لهذه الطريقة ؟

ج ـ تحدثونني بصفة خاصة عن حلقاتي في البحث وتقولون عنها انها تجمع غالبية عظمى من الطلبة العرب ، وانتم ، في الحقيقة ، بذلك تثيرون مشكلة عامة جدا ، تلك التي للبحث الجامعي ، اننا في الوضع الذي نحن عليه ، للاسف ، قليلو العدد كثيرا . في الحين الذي لدينا في حلقة البحث الجامعي اتباع في غاية التنوع ، تنوع في الاصول الوطنية هناك العرب وهناك الفرنسيون ، وتنوع في الاهتمام المنهجي ، معذرة ، فهناك تنوع في حقول البحث . أريد أن اقول ان باحثا ما يهتم بفقه اللغة بينما آخر يهتم باللسانيات وثالث بالادب القديم ورابع بالادب الحديث وخامس بالسينما وعلاقاتها بالادب ... الخ اخيرا التنوع الثالث ذلك الذي يتعلق باصطفاءات الباحث المنهجية التي يختار .

هناك من الناس من يريد العمل على منوال قديم ، فيحضر اطروحة عن حياة المؤلف واعماله . الدراسة الوحيدة الموضوع الكلاسيكية التي تمثل الاطروحة الجامعية التقليدية . هناك آخرون يريدون العمل حسب مناهج وطرق ماركسية تقليدية هي الاخرى ، أو على العكس صححت واعيد النظر فيها على ضوء نظرية ل. غولدمان و كوخ . مثلا ، واخيرا هناك غيرهم ايضا من يرغب في العمل من خلال المناهج البنيوية .

لهذا فانني اقول أن القاعدة الذهبية « للسريرة الجامعية » هي، ان نترك هؤلاء الناس يعملون كما يشاؤون ، بطريقتهم التي يختارونها ، آخذين بعين الاعتبار انه لا يمكن ان نقوم باعمال جيدة عندما تفرض المناهج علينا ، والقاعدة الذهبية الثانية والتي هي ناتجة عن الاولى ، أن علينا ، وهذا طبيعي ، أن لا نقوم بأدب اسميه « ادب الصالون » ولست هنا لأترأس اطروحات تكون قوام محاضرة في قاعة « بليال » او اي منتدى جماهيري آخر ، فنحن هنا لنقوم باعمال علمية ، والقاعدة الوحيدة التي نفرضها ـ كما يرى ذلك كل الجامعيين الفرنسيين ـ على الباحثين الذين يعملون تحت اشرافي هو أن يلتزموا في نهاية الامر بالنص وتبقى بعد ذلك المنهجية التي يتبعونها قليلة الاهمية ، فانا اطلب منهم أن يكون النص والنص وحده الموحي الوحيد لخواطرهم .

والذي اطلبه من الدارس في دراسته التاريخية والاجتماعية هو أن يقوم بها من خلال النص ،

وبوجه آخر ، ان لا يحدثني ، مثلا ، عن اسبانيا الاسلامية فقط من خلال ما تمكن من قراءته ، أو من نسج خياله او تخميناته بل ان يحدثني عنها من خلال ماراه في النصوص المعاصرة التي تتحدث عن هذا المجتمع . وإذاً ففي سبيل أن الخص اقول اخيرا : حرية مطلقة في الاختيار المنهجي انما طلب صارم باقتضاء الاعتماد على النص ايا ما كانت الطريقة المختارة .

س : انتم ، في الوضع الذي تعرفون من خلاله ان الجامعيين العرب يطورون باستمرار أبحاثهم العلمية المتعلقة بالمظاهر المتنوعة للثقافة العربية ، امتقدون والحالة هذه انه يجب أن تركز الجهود على الميادين القديمة أم الحديثة ؟

ج : بالحقيقة ، كلاهما ، الميدان القديم والميدان الحديث معنيان بتركيز الجهود لانهما شرط لازم ، فمن جهة فان دارساً - في وقتنا الحاضر - للأدب العربي في ميدانه القديم لا يريد أن يقطع لتاملاته امتداداتها الحالية والذي اعنيه من ذلك أننا نعرف ان العالم العربي في يومنا الحاضر له تاملات حول نفسه غير منفصلة عن تاملاته ليس عن حاضره ومستقبله فحسب بل ايضا عن تاملاته لماضيه ، ونحن نعلم باي ثقل تلقي (بالتعبير الانسب للكلمة) هذه التاملات حول الماضي ، حول المجد ، حول مساهمة الحضارة العربية في بناء الحضارات العالمية. نحن نعلم أيضا أي وزن تزنه هذه الخواطر تجاه الخواطر المعاصرة . وعمليا فان كل الحضارات على هذا النحو . إذ لا يمكنكم اليوم ان تقطعوا مثقفا فرنسيا - حتى ولو صرح لكم بعدم اهتمامه بعصر لويس الرابع عشر - لا يمكن ان تقطعوه عن هذا الارث ، لانه (اي هذا الارث) شاء أم أبى يشكل جزءاً من ثقافته ولو باللغة التي هي مع بعض التقريب في الاشياء ذات اللغة المتكلم بها في عصر لويس الرابع عشر ، وعلى العكس فانني لا اعتقد أن باحثاً ينكب على الميدان الحديث يمكنه أن يتجرد كلية عن ماضيه . لا اعتقد مثلا ان باحثاً يعنى بالرواية العربية المعاصرة يمكنه ان يقطع تفكيره عن تامل لغة هذه الرواية وعن المشاكل التي تتطرح فيما يخص العلاقة بين اللغة الحديثة لهذه الرواية واللغةالقديمة من العصورالوسطى، وهذا بطبيعة الحالمثال ويوجد غيره الكثير .

انما هنا أيضا يوجد محذور ، هذا المحذور هو في أن نرغب جاهدين في الخلط بين النوعين فنقول ان الادب العربي المعاصر هو الادب العربي القديم ، وحتى لا ابقى ضمن حدود العموميات فانني ساعطي مثالا بسيطا : لقد جرى ان جاءني عدد من الباحثين يعرضون علي مواضيع لاطروحاتهم حول الرواية في الادب العربي منذ البداية . انني اجد مداهنة في موضوع كهذا . ذلك لان الرواية صنف أدبي يتحدد علميا بتاريخ ، بمجتمع ، وباختصار بشروطالخلق لصنف أدبي .

نحن نعلم ان الرواية في الغرب ، وعلى الاقل في الادب الفرنسيولدتفي القرن السابع عشر ، على وجه التقريب ، وليس لانه وجد في القرن السادس عشر مؤلف نثري أظنه

بمعنى « Leroman de Rose » تقول عنه انه الرواية . أبدا ، إذ يجب ان نعلم مانعني بحديثنا .

وإذا ما قيل لي انه يوجد في الادب العربي القديم عناصر روائية ، أبطال روائيون ، فانني اقول لهذا نعم . إنما الا يتكلم عن رواية في الادب العربي قبل القرن التاسع عشر . وانني الح فاعيد مرة أخرى القول انني اعتقد ان دراسة حول الرواية العربية المعاصرة لا تنقطع عن بعض تاملات اكثر عمومية حول اللغة والادب العربي القديم ، إلا انني لا اعتقد أن الرواية العربية المعاصرة تملك اصلا في الرواية العربية الخيالية في الادب القديم . (اعني الرواية بالمعنى الروائي) . وهذا يعني باختصار : انني اعتقد وجوب وجود دراسات وأبحاث عن الميدانين القديم والحديث كما اعتقد وجوب وجود تاملات في كل ميدان نحو الآخر على أن لا يؤدي ذلك الى اللبس بينهما .

* * *

س : اتعتقدون أن اللغة العربية لغة حية ، قادرة على تمثل طرق البحث المستوردة من الغرب . وأيضا قادرة على أن تخلق بنفسها المصطلحات التي من شانها ان تجعل الثقافة العربية على مستوى الابداعية الابتكارية ؟

ج : أ ـ ميكيل : انني اعتقد فعلا ان اللغة العربية لغة حية ، ولا أحيلكم في هذه النقطة إلا الى ما جدّ في الاشهر القليلة الماضية من اعتماد اللغة العربية لغة عمل عالمي في المحافل الدولية كمنظمة الامم المتحدة ، ومنظمة اليونسكو ، اذا التطبيق نفسه قدم الجواب .

إلا انكم في الحقيقة تطرحون سؤالين احدهما يتعلق بالعبقرية ، « الفطرة » والثاني يتعلق بالمصطلحات . أما فيما يتعلق بالعبقرية فاعتقد اننا ، هنا أيضا ، نستطيع العودة للتاريخ : فالعرب في تاريخهم القديم كانوا قادرين في حينه على أن يكونوا مبتكرين ولا ارى ما يمنع اليوم من ان يكونوا كما كانوا عليه . وبدقة أكثر فالامر هنا لا يتعلق بالابداع حسب المنهاج القديم ، بل الذي يبدو لي ان على العرب اليوم أن يكونوا في عالمهم الحاضر ومتطلباته على مستوى ابداع عرب القرون الوسطى في عالمهم الذي كان يخصهم وضمن الظروف التي كانوا يخضعون لها ، وهنا أيضا ارى أنه يجب عدم الخلط في الأمور ، فاما أن نكون مبتكرين انطلاقا من بعض المعطيات التي وصل اليها غيرنا ، او ان نكون مبتكرين انطلاقا من معطيات وصلنا اليها بانفسنا ، وهنا أحيلكم ، اذا شئتم ، الى محاولة ليفي ـ شتراوس : يمكننا ان نقول اليوم ان فكر شتراوس فكر ابداعي رائع ، غير أن فكره هذا قد انضاف هو نفسه الى كل ما وصل اليه علم الاناسة (الانتروبولوجيا) الاميركي من معطيات في عقد السنين العشرة الاخيرة ، وهنا أيضا لا اعتقد انه يجب أن نضاعف بلا طائل العقد والمشاكل وان نتساءل كيف يمكننا ان نكون مبدعين انطلاقا من اللاشيء ؟ وما كنا أبدا مبدعين انطلاقا من اللاشيء انني أعتقد أن « الابداعية » في أي حضارة من الحضارات

ما كانت البتة ابداعية مطلقة ، ومن حيث النتيجة فانه لا توجد حضارة مبدعة الا بمقدار ما تكون الحضارات الاخرى المحيطة بها مبدعة هي ايضا . اما فيما يتعلق بالمشكلة الأدق وهي المصطلحات فهنا ايضا أعتقد أن من الاولى التمييز بين المستويات .

هناك كلمة ترمز الى اشياء جديدة تماما، وهناك كلمات ترمز الى تعابير جديدة عن تصورات مجردة موجودة منذ القديم ، وهنا يبدو لي أن العربي في هذا الصدد لديه وسائل جمة لصنع هذه المصطلحات ، كما أن هناك الوسائل النابعة من لغته نفسها ، اما الطرق فهي متنوعة جدا ، هناك امكانية استخراج كلمة من قديم اللغة غلفها النسيان لنعطيها مدلولا حديثا ، هناك امكانية الاشتقاق، يضاف الى ذلك كله امكانية النسج اللغوي (المحاكاة) .

أريد أن أقول من ذلك : انني أعلم أنكم انتم العرب خاصة ، حساسون جدا وفي اغلب الاحيان معارضون لاقحام الفاظ أجنبية في لغتكم ، هنا أيضا يجب ان لا تظنوا ان هذه المعارضة وتلك العقدة تنحصر بكم فمن حيث النتيجة ان كل اللغات هي أيضا كذلك .

وهاكم رد فعل ايتامبل Etiemble دليلا .

انني اتفق مع ايتامبل فانا اعتقد ان جزءا كبيراً من الالفاظ الانكليزية التي حقنت في اللغة الفرنسية كان يمكن أن تستبدل بألفاظ أخرى فرنسية . انما أيضا اعترف ان بعض الكلمات التي لأنها خلقت في حضارة أخرى ، في لغة أخرى غير لغتي ، لا يمكن ان نجد لها مرادفا بالفرنسية حتما ، والحالة هذه ، أن نمر عبر هذه الالفاظ الاجنبية ، بطبيعة الحال تبقى هذه الحالات نادرة بقدر ما نتمكن .

هنا أنا أطرح ماتسميه في علم اللسانيات بالنسج اللغوي ، ترى أستطيعون أنتم أن تتجاوزوا هذه العقبة أم لا ؟ على أية حال هذه قضية تعنيكم ، وان كنت لا أدري اذا كان باستطاعتكم تجاوزها او لا .

ويجب علي هنا أن أقول انه اذا تعذر عليكم وانتم امام فكرة حديثة ، أن تجدوا في اللغة العربية كلمة قادرة على اعادة الفكرة، فان ذلك لايستدعي التعقد .

لأن هذه الكلمة ، المصطلح (الاعجمية) ـ ستغدو وفي الاطار الذي ستندمج فيه ، في داخل اللغة ـ كلمة عربية كبقية الكلمات العربية .

وبهذا أجمل السؤال الموجه عبر هذه المصطلحات المتخصصة ، المصطلحات المبتكرة، أكانت أجنبية أم لا ، القضية المطروحة هي قدرة اللغة العربية على التكامل ضمن الاطار العالمي .

* * *

س : تسافرون بين الفينة والاخرى لبعض دول الوطن العربي حيث تلقون محاضرات علمية : لكن ذلك في اغلب الاحيان يكون في نطاق الاوساط الجامعية الضيقة .

الا تظنون أن تطوير التبادل بين الجامعيين غربيين وشرقيين قد يمكن

من فتح آفاق جديدة على مستوى البحث الذي ينطلق هنا وهناك بالثقافة العربية قديمها وحديثها وبعملية الاتصال بين شعوب الغرب وبالأخص الشعب الفرنسي من جهة والشعب العربي من جهة أخرى ؟

ج : انني أرى أن الاولى التمييز بين الحالات . أعتقد أن حضارتين ـ وهما في حالتنا هذه ـ الفرنسية والعربية تتجاوران عن طريق علمائهما فقط لا يمكنهما تطوير حوارهما . اذ على أهمية هذا الحوار فانه لا يشمل كل الامكانيات المتاحة .. طبيعي أن حوار العلماء يمكن ان يكون الخطوة الاولى في تطوير العلاقات ، لكن على هاتين الحضارتين أن لا تحصرا صلاتهما بهذا النمط من العلاقات والذي اريد قوله هو أن هذه الصلات يجب أن تفتح آفاقا جديدة على قضايا أكثر اتساعا . ومن حسن الحظ أن تكون لدينا ـ في أيامنا هذه ـ دلائل كثيرة على أن هذه العلاقات في طريق التعدد ، يحضر الى الذهن مثلا ، وسأكون موجزاً بهذا الصدد ، العلاقات الاقتصادية بعد قضية البترول ، وبتعميم أكثر مشكلة الطاقة . هذا اختبار ، وباعتقادي أنه امتحان جيد ، واختبار ناجح لتطوير هذه المبادلات رغم المصاعب التي يسببها لهؤلاء واولئك في الوقت الحاضر .

وهنا بالطبع ، يجب وفي الداخل من كل من الحضارتين العربية والفرنسية ، أن تطور عمليات التبادل بين العلماء فتشمل أكبر قاعدة ممكنة من الجماهير .

قلت ان من الواجب عدم الخلط (بين الحالات) والذي سأورده يكمن مني في الصميم : لو حاولت أن أحدد دوري أنا في حياتي العملية لوجدت أنه بصفة رئيسية داخل مجتمعي ـ المجتمع الفرنسي ـ فليس من دوري أن أعلم اللغة العربية للناطقين بها وبالتحديد ذاته ليس من دوري أن أعلمهم مناهج البحث ، التي أظن انهم اذا قدموا الى فرنسا يمكنهم تعلمها بانفسهم ، فانا هنا ، بصفتي الجامعية ، لأمدهم عند الاقتضاء بنصائحي وتجربتي ، ومرة أخرى أردد ، لست هنا لأعلمهم شيئا آخر ، انا هنا لارشدهم ، وهذا أمر مغاير ، وأخيرا فان دوري الاساسي ليس ازاء العرب ، اذ عليهم ان يتعلموا بأنفسهم ، بل ان دوري في فرنسا ، ازاء الطلبة الفرنسيين ، وازاء الشعب الفرنسي .

أولا : ان دوري ، كعالم ، يتمثل ، وهنا أزن كلماتي ، في تلقين اللغة العربية للفرنسيين وبعد أن يحذقوها ، أعلمهم تطبيق مناهج البحث المختلفة على السياق العربي الذي يدرسونه .

ثانيا : ان دوري يتمثل ، بمقدار ما يسمح به وقتي ، في ايصال نتاج العلم والاستشراق الى أوسع محيط . ولقد حاولت ذلك عن طريق جهاز التلفزة . كما قمت به من خلال مقالات بسطت ليتناولها الجميع ، وأرى من الواجب التنويه انني قمت بذلك ضمن انتاجي العلمي الخاص ، اذ انني أعتقد أن من واجب العلماء التخلي باطراد عن أسلوب متميز بهم خاصة ، ولا أعني بذلك

على الاطلاق التنكر لأسلوب العلم ، وانما اعتقد الأوجب محاولة وضع العلم متساوقا مع اسلوب يفهمه أكبر عدد ممكن من الناس.

وربما يقال لي انني احاول في كتابتي صناعة الادب ، واجيب بكل صراحة انني عندما اشاء ان اكتب الادب فانني اضع ذلك بشكل مواز ، فانا ايضا كاتب اديب واصر على التصريح بذلك . على انني لا احاول ان اصنع الادب عبر انتاجي العلمي بل أحاول وضع هذا الانتاج في متناول اناس ليسوا عربا ولا ناطقين بالعربية لا ولا مستشرقين ممن يهتمون مثلا بحقل المقارنة ، فالكتب التي انا بصدد كتابتها حول الجغرافيين العرب من جهة وحول الف ليلة وليلة من جهة اخرى لا اكتبها للعرب وحدهم او للمستشرقين بل اكتبها لزملائي من غير المستشرقين وأبعد من ذلك الى القاعدة الجماهيرية الاكثر اتساعا .

إذا وحتى ننهي الاجابة عن هذا السؤال وهذا الحوار بصفة عامة أقول : إن للعالم دوراً عظيما ، لكنه عظيم بمقدار ما يحاول عدم الانعزال داخل محيطه .

ختاما : ان القاعدة الذهبية التي تعرض لنا في هذه الحقبة هي أن نقطع انعزال العالِم. صحيح أن هذه القاعدة تعرض علينا كثير من الصعوبات في مجال البحث ، سيما واننا نشعر غالبا بتشتت افكارنا تجاه ذلك ومع ذلك فهذا فداء تداول المعلومات ، لمن اقتسامها بين أكبر عدد ممكن من البشر .

اما فيما يخص عملية التبادل ، من السؤال ، فانني اقول انه ، بطبيعة الحال ، من الضروري تطويرها بين الجامعيين الفرنسيين والجامعيين العرب ، لكن ، واتحدث هنا كجامعي فرنسي ، لا يجب أن نبقي عليها وحيدة الاتجاه ، اذ لا يمكن القول انه في الظروف الراهنة كثيرا ما يذهب الجامعيون الفرنسيون للبلدان العربية ، وهو اكثر بكثير مما ياتي الجامعيون العرب لفرنسا .

ولقد قلت انني اتحدث كجامعي فرنسي لانني عنيت بقولي انني اتمنى أن تعطى الجامعة الفرنسية الوسائل المناسبة لاستقبال اكبر عدد ممكن من الجامعيين العرب كأساتذة مشاركين مثلا .

وليات الجامعيون العرب الى هنا لاكمال صرح معارفهم ، أو لتقديم تدريس معين وهذا افضل ، وسابعد اكثر ، سيكون الافضل لو ياتي الجامعيون العرب لتقديم تدريس اللغة العربية موجه بشكل خاص للطلبة الجامعيين الفرنسيين .

باريس

★ ★ ★